الفصل الرابع
في إعجاز القرآن بإسلوبه وبلاغته وتأثيره وثورته

أسلوب القرآن في تركيبه المَزْجِي:

لو أن عقائد الإسلام المنزلة في القرآن من الإيمان بالله وصفاته، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وما فيه من الحساب والجزاء، ودار الثواب ودار العقاب، جمعت مُرتبة في ثلاث سور أو أربع أو خمس مثلاً ككتب العقائد المدونة.

ولو أن عباداته من الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والدعاء والأذكار، وضع كل منها في بضع سور أيضاً مبوبة مفصلة ككتب الفقه المصنفة.

ولو أن آدابه وحكمه وفضائله الواجبة والمندوبة، وما يقابلها من الرذائل والأعمال المحرمة والمكروهة، أفردت هي وما تقتضيه من الترغيب والترهيب من المواعظ والنذر والأمثال الباعثة لشعوري الخوف والرجاء، فُصلت في عشر سور أو أكثر، ككتب الأخلاق والآداب المؤلفة.

ولو أن قواعده التشريعية وأحكامه الشخصية والسياسية والحربية والمالية والمدنية وحدوده وعقوباته التأديبية، رتبت في عدة سور خاصة بها كأسفار القوانين الوضعية.

ثم لو أن قصص النبيين والمرسلين وما فيها من العبر والمواعظ والسنن الإلهية، سردت في سورها مرتبة كدواوين التاريخ.

لو أن كل ما ذكر وما لم يذكر من مقاصد القرآن التي أراد الله بها إصلاح شئون البشر جُمع كل نوع منها وحده، كترتيب أسفار التوراة التاريخي التي لا يعلم أحد مُرتبها، أو كتب العلم والفقه والقوانين - لفقد القرآن بذلك أعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الأول من التشريع وحكمة التنزيل وهو التعبد به واستفادة كل حافظ للكثير أو للقليل من سوره -حتى القصيرة منها- كثيراً من مسائل الإيمان والفضائل والأحكام والحكم المنبثة في جميع السور، لأن السورة الواحدة لا تحوي

في هذا الترتيب المفروض إلا مقصداً واحداً من تلك المقاصد، وقد يكون أحكام الطلاق أو الحيض فمن لم يحفظ إلا سورة طويلة في موضوع واحد يتعبد بها وحدها فلا شك أنه يملها.

وأما سوره المنزلة بهذا الأسلوب الغريب، والنظم العجيب، فقد يكون في الآية الواحدة الطويلة، والسورة الواحدة القصيرة عدة ألوان من الهداية، وإن كانت في موضوع واحد، فترى في سورة الفيل وقريش على قصرهما ذكر مسألتين تاريخيتين قد جعلتا حجة على مشركي قريش فيما يجب عليهم من توحيد الله وعبادته، بما مَنَّ عليهم من عنايته بحفظ البيت الحرام وأمنه، وهو مناط عزهم وفخرهم وشرفهم، ومعقل حياتهم، ومَجبى تجارتهم ورزقهم.

قلت: إن القرآن لو أنزل بأساليب الكتب المألوفة المعهودة وترتيبها لفقد أعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الأول. وأقول أيضاً: إنه لو أنزل هكذا، لفقد بهذا الترتيب أخص مراتب إعجازه المقصود بالدرجة الثانية. كلا، إن كل واحدة من المزيتين مقصودة لذاتها، فالأولى أن يعبر عن المزية الأولى بالموضوع وعن الثانية بالشكل، كاصطلاح المحاكم، فيقال: لو كان القرآن مرتباً مبوباً كما ذُكر لكان خالياً من أعظم مزاياه على غيره من الكتب شكلاً وموضوعاً.

يُعلم هذا وذاك مما نبينه من فوائد نظمه وأسلوبه الذي أنزله به رب العالمين العليم الحكيم الرحيم، وهو مَزج تلك المقاصد كلها بعضها ببعض، وتفريقها في السور الكثيرة، الطويلة منها والقصيرة، بالمناسبات المختلفة، وتكرارها بالعبارات البليغة المؤثرة في القلوب، المحركة للشعور، النافية للسآمة والملل من المواظبة على ترتيلها بنغمات نظمه الخاص به، وفواصله المتعددة القابلة لأنواع من التغني والنغم الذي يحرك في القلب وجدان الخشوع، وخشية الإجلال للرب المعبود، والعرفان بقدسه وكماله والملاحظة لجماله وجلاله، والتعرض لتجلي أسمائه وصفاته، والتفكر في آيات مصنوعاته، والرجاء في رضوانه ورحمته، والخوف من غضبه وعقوبته، والاعتبار بسننه في خَلْقه، والقابلة لأنواع أخرى من الإلقاء الخطابي في الترغيب

والترهيب، والتعجب والتعجيب، والتكريه والتحبيب، والزجر والتأنيب، واستفهام الإنكار والتقرير، والتهكم والتوبيخ، بما لا نظير له في كلام البشر من خطابة ولا شعر، ولا رجز ولا سجع، فبهذا الإسلوب الرفيع في النظم البديع، وبلاغة التعبير الرفيع، كان القرآن كما ورد في معنى وصفه أنه لا تبلى جدته، ولا تخلقه كثرة الترديد[1].

وحكمة ذلك وغايته تُعلم مما وقع بالفعل، وهاك بيانه بالإجمال:

الثورة والانقلاب الذي أحدثه القرآن
في الأمة العربية فسائر الأمم

القرآن كتاب أنزله الله تعالى على قلب رجل أمي نشأ على الفطرة البشرية سليم العقل، صقيل النفس، طاهر الأخلاق، لم تملكه تقاليد دينية، ولا أهواء دنيوية، لأجل إحداث ثورة وانقلاب كبير في العرب فسائر الأمم، يكتسح من العالم

(1) المعنى المراد من الحديث هنا: أن القرآن لا تنقضي عجائبه الدالة على أنه من الله تعالى، ولا يُمل ويُسأم من كثرة التلاوة، ولا يَخْلِق بطول الزمان، وهو من: خَلِقَ الثوب إذا بَلِيَ، وأخلقه أبلاه، وأصح ما ورد في هذا ما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ومحمد ابن نصر وابن الأنباري في كتاب المصاحف والحاكم المستدرك وصححه والبيهقي من حديث ابن مسعود مرفوعاً إلى النبي ﷺ ولفظه « إن هذا القرآن مأدبة الله، فأقبلوا من مأدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يزيع فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا يخلق عن كثرة الرد، فاتلوه فإن الله تعالى يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، الف ولام وميم». قوله «لا يزيغ فيستعتب» معناه لا يميل عن الحق فيطلب منه العتبى أي الرجوع إليه. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخَرِّجاه بصالح بن عمر، أي ولم يُخَرِّجه البخاري ومسلم بسبب ما قيل في صالح بن عمر في سنده، وليس كذلك فإن صالحاً قد خَرَّج له مسلم وإنما تركاه بسبب شيخه إبراهيم بن مسلم الهَجَري (بفتحتين) الذي ضعفه الجمهور، وما ضعفوه بطعن في صدقه أو حفظه، وإنما وجدوا أنه رفع عدة أحاديث إلى النبي ﷺ هي موقوفة على عبد الله بن مسعود، وكذا على عمر رضي الله عنه، ولكن صرح سفيان بن عيينة بأنه جاء إبراهيم هذا فأعطاه كتبه فصحح له المرفوع والموقوف بقوله: هذا عن النبي ﷺ، وهذا عن عبد الله ابن مسعود، وهذا عن عمر، والظاهر: أن هذا الحديث مما رفعه سفيان، ولذلك خَرَّجه ابن أبي شيبة ومن ذكرنا مرفوعاً. وروي نحوه من حديث علي رضي الله عنه واعتمده القاضي الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن.

الإنساني ما دنس فطرته من رجس الشرك والوثنية، الذي هبط بهذا الإنسان من أفقه الأعلى في عالم الأرض، إلى عبادة مثله وما هو دونه من هذه المخلوقات – وما أفسد عقله وذهب باستقلال فكره من البدع الكنسية، والتقاليد المذهبية، التي أحالت توحيد الأنبياء الأولين شِركاً، وحقهم باطلاً، وهدايتهم غواية – وما أفسد بأسه، وأذل نفسه، وسلبه إرادته، من استبداد الملوك الظالمين، والرؤساء القاهرين.

ثورة تُحرر العقل البشري والإرادة الإنسانية من رق المنتحلين لأنفسهم صفة الربوبية، أو النيابة عن الرب الخالق تعالى في التحكم والهيمنة والسيطرة على قلوب الناس وعقولهم، والتصرف في إراداتهم وأبدانهم وأموالهم، فيكون بهذا العِتق كل امريء اهتدى به حراً كريماً في نفسه، عبداً خالصاً لربه وإلهه، يوجه قواه العقلية والبدنية إلى تكميل نفسه وجنسه.

مثل هذه الثورة الإنسانية لا يمكن أن تحدث إلا على قاعدة القرآن في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:11].

وكيف يكون تغيير الأقوام لما بأنفسهم من العقائد والأخلاق والصفات الثابتة، التي طبعتها عليها العبادات الموروثة والعادات الراسخة؟

هل يكفي في ذلك قيام مصلح فيهم يضع لهم كتاباً تعليمياً جافاً ككتب الفنون يقول فيه: إنكم أيها الناس ضالون فاسدون، ومضلون مفسدون، فاعملوا بهذا الكتاب تهتدوا وتَصْلُحوا، أو قانوناً مدنياً يقول في مقدمته: نفذوا هذا القانون تُحفظ حقوقكم، وتعتز أمتكم وتقوَ دولتكم؟ أنى وقد عهد من الناس الفاسدين المفسدين سوء التصرف بكتب أنبيائهم المرسلين، وإهمال قوانين حكمائهم المصلحين، كما فعل أهل الملل الأولون، والمسلمون المتأخرون؟

كلا، إنما توضع القوانين للحكومات المنظمة ذات السلطان والقوة التي تكفل تنفيذها، وأنى لمحمد ﷺ فعل هذا في الأمة العربية العاتية عن كل سيطرة ونظام، وقد بُعث بالحجة والبرهان، فريداً وحيداً لا عصبة له من قومه ولا سلطان؟ على أنه جاء بأعدل الأصول التي تَبني عليها أمة قوانينها، عند تكوين دولتها في الأحوال

الملائمة لها، جاء لإصلاح الأخلاق والطباع، بالحجة القيمة وطرق الإقناع، والخضوع لوازع الاعتقاد النفسي، دون وازع الحكم القهري، ليغير الناس ما بأنفسهم بالاختيار، لا بالقوة والإجبار، فيغير الله ما بهم بمقتضى سنته في نظام الاجتماع. وقد نطق القرآن بأن الرسول إنما هو مبلغ ومذكر، غير جبار على الناس ولا مسيطر.

كلا إن هذه الثورة ما كان يمكن أن تحدث إلا بما حدثت به، وهو تأثير هذا القرآن في أنفس الأمة العربية، التي كانت أشد الأمم البدوية والمدنية استعداداً فطرياً لظهور الإسلام فيها، كما بيناه في كتابنا (خلاصة السيرة المحمدية) وسنلم به قريباً.

ذلك بأن من طباع البشر في معرفة الحق والباطل والخير والشر، والعمل بمقتضى المعرفة، وإن خالف مقتضى الأهواء والشهوات، والتقاليد والعادات، أن مجرد البيان والإعلام والأمر والنهي، لا يكفي في الحمل على التزام الحق ونصره على الباطل، ولا في أداء الواجب من عمل الخير وترك الشر إذا عارض المقتضى العلمي لهما ما أشرنا إليه آنفاً من الموانع النفسية والعملية، إلا في بعض الأفراد من الناس، دون الجماعات والأقوام.

بل مضت سنة الله في تثبيت الحق والخير في النفس، وصدور آثارهما عنهما بالعمل، أنه يتوقف على صيرورة الإيمان بهما إذعاناً وجدانياً حاكماً على القلب، راجحاً على ما يخالفه من رغب ورهب، وأمل وألم، وإنما يكون هذا في الأحداث بالتربية العلمية العملية، والأسوة الحسنة لهم فيمن يَنشؤون بينهم من الوالدين والأقربين والمعاشرين.

وأما كبار السن فلا سبيل إلى جعل الإيمان بالحق المطلق والخير العام إذعاناً وجدانياً لجمهورهم إلا بالأسلوب الذي نزل به القرآن، بل بالقرآن الممتاز بهذا الأسلوب، فقَلب به طباع الكهول والشبان وأخلاقهم وتقاليدهم وعاداتهم، وحولها إلى أضدادها عِلماً وعملاً بما لم يعهد له نظير في البشر، فكان القرآن آية

خارقة للمعهود من سنن الاجتماع البشري في تأثيره بالتبع، لكونه آية معجزة للبشر في لغته وأسلوبه، كما كان آية معجزة في إصلاحه للأمم بهديه وتعليمه.

اعتبار الموازنة بين تأثير القرآن في العرب وتأثير التوراة في بني إسرائيل

واعتبر هذا ببني إسرائيل سلالة النبيين، فإن كل ما رأوه بمصر من آيات موسى عليه السلام ثم ما رأوه في برية سيناء ومدة التيه فيها، ومن عناية الله تعالى بهم، ومن سماعهم كلام الله تعالى بآذانهم في لهيب النار المشتعلة على ما ترويه توراتهم -ولم يثبت عندنا التكليم إلا لنبيهم- لم يتغير بذلك كله ما كان بأنفسهم من تأثير الوثنية المصرية وخرافاتها الراسخة في قلوبهم، ولا من تأثير السياسة الفرعونية المستبدة في أخلاقهم، فقد عذبوا موسى عذاباً نكراً، وعاندوه في كل ما كان يأمرهم به، وعبدوا صنم العجل الذهبي في أثناء مناجاته لربه، حنيناً إلى ما كان من عبادة مستعبديهم الفرعونيين للعجل (أبيس) حتى وصفهم الله في التوراة بالشعب الصلب الرقبة، وهو كناية عن البلادة والعناد، وعصل الطباع[1] المانع من الانقياد، وظل ذلك كذلك إلى أن باد ذلك الجيل الفاسد بعد أربعين سنة، ونشأ فيهم جيل جديد ممن كانوا أطفالاً عند الخروج من مصر وممن ولد في التيه، أمكن أن يعقلوا التوحيد والشريعة، وأن يعملوا بها ويجاهدوا في سبيلها، وإنما كان ذلك بعد موت موسى عليه السلام.

فأين بنو إسرائيل من أصحاب محمد ﷺ الذين تربوا بسماع القرآن وترتيله وتدبره، في رسوخهم في الإيمان وصبرهم على أذى المشركين واضطهادهم إياهم ليفتنوهم عن دينهم. ثم مجاهدتهم لهم عند الإمكان بعد الهجرة، ومجاهدة أعوانهم من أهل الكتاب (اليهود) وتطهيرهم الحجاز وسائر جزيرة العرب من كفر الفريقين في عهده ﷺ. وقد كانت مدة البعثة المحمدية كلها عشرين سنة أي نصف مدة التيه،

(1) أي اعوجاجها مع صلابتها من عصل الشيء -من باب فرح- اعوج في صلابة فهو عصل -ككتف- وأعصل والجمع عصال، كسهام.

وكان نصفها قد ذهب في الدعوة وتبليغ الدين للأفراد بمكة، والنصف الآخر هو الذي تم فيه الانقلاب العربي من تشريع وتنفيذ وجهاد وفتح وتأسيس.

ثم تأمل ما كان من تدفقهم أنفسهم كالسيل الأَتِيِّ[1] على الأقطار من نواحي الجزيرة كلها، والظهور على مُلكي قيصر وكسرى أعظم ملوك الأرض، وإزالة الشرك والظلم منهما، ونشر التوحيد والحق والعدل فيهما، ودخول الأمم في دين الله أفواجاً مختارين اهتداء بهم، وعنايتهم بتعلم العربية بالتبع لعنايتهم بالدين، حتى فتحوا هم وتلاميذهم نصف كرة الأرض في زهاء نصف قرن، وكانوا مضرب المثل في الرحمة والعدل[2] وموضع الحيرة لعلماء الاجتماع وقواد الحرب[3].

وأنىَّ يبلغ الشعب الذي وصفه ربه في كتابه بالشعب المتمرد الصلب الرقبة[4] درجة الذين وصفهم رب العالمين بقوله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:29] الآية: فهذا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الذي نشأ وشب على الشدة والقسوة في الجاهلية، حتى قيل: إنه وأد بنتاً له، صار بالإسلام من أرحم الرحماء بالناس، حتى إنه يطبخ الطعام هو وزوجه ليلاً لامرأة فقيرة في المخاض، وبعلها حاضر لا يساعدهما، ولم يكن يعلم أنه أمير المؤمنين.

لا جرم أن سبب هذا كله تأثير القرآن بهذا الأسلوب الذي نراه في المصحف، فقد كان النبي ﷺ يجاهد به الكافرين، كما أمره الله بقوله ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان]، ثم كان به يُربي المؤمنين ويزكيهم، كما

---

(1) الأتي – بالتشديد– كقوي والأتاوي: الغريب الذي يأتي من حيث لا يعلم.

(2) قال الفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون، في كتابه حضارة العرب والإسلام: ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب.

(3) في مقدمتهم نابليون بونابارت أشهر قواد الحرب في العالم، وهو الذي قال: إن العرب فتحوا نصف العالم في نصف قرن، وصرح بأنه يدين بالإسلام كما تراه في علاوات كتاب حاضر العالم الإسلامي للأمير شكيب (ص 24 ج 1 طبعة ثانية).

(4) راجع آخر الفصل 31 من سفر التثنية وغيره.

قال الله تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:159] الآية. وبهدايته والتأسي بمُبَلِّغه ﷺ ربوا الأمم وهذبوها، وقلما يقرؤه أحد، كما كانوا يقرأون، إلا ويهتدي به كما كانوا يهتدون، على تفاوت في الاستعداد النفسي واللغوي، واختلاف الزمان لا يخفى.

المسلمون أرحم البشر بهداية القرآن:

وكيف لا يكون المؤمنون بالقرآن أرحم الناس؟ وقد امتن الله عليهم به في قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس]. وقد قلنا في الكلام على الرحمة من هذه المزايا الأربع للقرآن من تفسير المنار (جزء11) ما نصه:

(الرابعة الرحمة للمؤمنين) وهي ما تثمره لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم من رحمة ربهم الخاصة، وهي صفة كمال، من آثارها: إغاثة الملهوف، وبذل المعروف وكف الظلم، ومنع التعدي والبغي، وغير ذلك من أعمال الخير والبر، ومقاومة الشر وقد وصف الله المؤمنين بقوله ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:29]، وبقوله ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد:17].

وهذه الصفات الأربع مرتبة على سنة الفطرة البشرية. فالموعظة: التعاليم التي تشعر النفس بنقصها، وخطر أمراضها الاعتقادية والخلقية، وتزعجها إلى مداواتها وطلب الشفاء منها، والشفاء تخلية، يتبعها طلب التحلية، بالصحة الكاملة، والعافية التامة، وهو الهدى، ومن ثمراته: هذه الرحمة التي لا توجد على كمالها إلا في المؤمنين المهتدين، ولا يُحرمها إلا الكافرون الماديون، حتى قال بعضهم: إنها ضعف في القلب، يجعل صاحبه كالمضطر إلى الإحسان والعطف، وما هذا القول إلا من فساد الفطرة وقسوة القلب، وفلسفة الكفر، فلقد كان أشجع الناس وأقواهم بدناً وقلباً: أرحم الناس، وأشدهم عطفاً، وهو سيد ولد آدم محمد رسول الله وخاتم النبيين،

الذي وصفه ربه بما وصف به نفسه من قوله ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]، وقوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]. وكذلك كان أصحابه رضي الله عنهم، حتى كان من يوصف بالشدة والقسوة كعمر بن الخطاب رضي الله عنه صار من أرحم الناس، وسيرته في ذلك معروفة كما أشرنا إليه آنفاً.

وقد قال ﷺ «لا تنزع الرحمة إلا من شقي» رواه أبو داود والترمذي واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقد صح عنه ﷺ «أنه كان إذا سمع وهو في الصلاة بكاء طفل تجوز في صلاته -أي إختصرها وخففها- رحمة به وبأمه». وروى ابن إسحق أن بلالاً رضي الله عنه مر بصفية وبإبنة عم لها على قتلى قومها اليهود بعد انتهاء غزوة خيبر، فصكت ابنة عمها وجهها وحثت عليه التراب، وهي تصيح وتبكي، فقال ﷺ له «أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما؟» وجاء أعرابي إليه ﷺ فقال «إنكم تقبلون أولادكم وما نقبلهم. فقال له ﷺ: أوَ أملك لك[1] أن نزع الله الرحمة من قلبك؟» رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها والمراد: إني لا أملك أن أشعرك بما لا تشعر به، لأن الله نزع الرحمة من قلبك، فأجعلك رحيماً.

بل كان ﷺ شديد الرحمة بالبهائم والطير والحشرات، وطالما أوصى بها ولا سيما صغارها وأمهاتها «جاءه مرة رجل وعليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه فقال: يا رسول الله إنني لما رأيتك أقبلت فمررت بغيضة شجر، فسمعت فيها أصوات فراخ طائر، فأخذتهن فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي، وكشفت لها عنهن فوقعت عليهن، فلففتها معهن بكسائي، فهن أولاء معي، فقال: ضعهن. قال: ففعلت، فأبت أمهن إلا لزومهن، فقال ﷺ: أتعجبون لرحمة أم الأفراخ بفراخها؟ قالوا: نعم، قال: والذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم

(1) قوله «أوَ أملك» همزته للإستفهام الإنكاري، والواو مفتوحة وما بعدها معطوف على محذوف، تقديره: أتكون هكذا وأملك لك من الله شيئاً غيره؟ وقوله «أن نزع» بفتح همزة أن، وتقدير لام التعليل أو باء السببية قبلها، أي بأن نزع الرحمة من قلبك.

الفراخ بفراخها، ارجع بهن حتى تضعهن حيث أخذتهن وأمهن معهن، فرجع بهن» رواه أبو داود من حديث عامر الرامي رضي الله عنه. وروى مالك والبخاري ومسلم وأبو داود من حديث أبي هريرة مرفوعاً حديثين خلاصتهما: ان الله غفر لرجل ولامرأة بغي -أي مومس- لأن كلاً منهما رأى كلباً قد اشتد به العطش فرحمه وأخرج له الماء من البئر بخفه فسقاه «قالوا له يا رسول الله إن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل كبد رطبة أجر» ورواه أحمد عن عبد الله بن عمر وسراقة بن مالك بلفظ «في كل ذات كبد حَرَّى أجر».

وقال ﷺ «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» رواه الترمذي وأبو داود من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، ورويناه مسلسلاً بالأولية من طريق أستاذنا الشيخ محمد أبي المحاسن القاوقجي. وقال ﷺ «إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوش على ولدها، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة -وفي رواية- ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل ما عند الله من العذاب لم يأمن النار» رواه البخاري ومسلم والترمذي. اهـ.

***

هذا ولو كان القرآن بأسلوب الكتب العلمية والقوانين الوضعية لما كان له ذلك التأثير الذي غَيَّر ما بأنفس العرب فغيروا به أمم العجم، فكانوا كلهم كما وصفهم الله عز وجل بقوله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران]، ولم يكن عند العرب شيء من العلم بسياسة الأمم وإدارتها إلا هذا القرآن، والأسوة الحسنة بمُبَلِّغه ومُنَفِّذه الأول عليه الصلاة والسلام، ولن يعود للمسلمين مجدهم وعزهم إلا إذا عادوا إلى هدايته وتجديد ثورته، ولعنة الله على من يصدونهم عنه، زاعمين

استغناءهم عن العمل به وبسنة مُبَيِّنه – بكتب مشايخهم الجافة الخاوية من كل ما يُحيي الإيمان ويُعلي الأمم ويزكي الأنفس، ويبعث على الجهاد بالأنفس والأموال.

أما وحق القرآن علينا، والله لم ينزل غيره إلينا، إنه لا يغنينا عن تدبره والاهتداء به، ولا عن فهم سورة واحدة من سوره، جميع ما في الأرض من الكتب المنزلة، ولا من الكتب المصنفة، وما فَتَن الشيطان هذه الأمة بشيء كما فتنهم بصدهم عن تهذيب أنفسهم وتزكيتها بالقرآن والسنة المبينة له، وعن دعوة جميع أهل الملل به إليه، وقد بينا لك الفرق بين تأثيره وتأثير التوراة، وهاك إجمالاً لما فعله في الأمة العربية ثم في العالم:

فعل القرآن في أنفس الأمة العربية
وإحداثها به أكبر ثورة عالمية

تهوَّد أناس من العرب وتنصر منهم أناس آخرون من قبل الإسلام بقرون، وكان كل منهم يمدح دينه ويدعو إليه بالطبع، فلم يعاد الجمهور أحداً منهم ويحتقره لدينه. بل كان لزعماء اليهود المستعربين وشعراء النصارى من العرب عندهم مكانتهم اللائقة بهم كأمثالهم من المشركين، ولم يكن لليهودية ولا للنصرانية أدنى صولة في مكة، ولا خافها رؤساء قريش على زعامتهم الدينية ولا الدنيوية، فلما قام فيهم محمد بن عبد الله يتلو عليهم القرآن باسم الله، زلزلت الأرض بهم زلزالها، وثاروا عليه ثورتهم الصغرى، ثم ثارت الأمة به ومعه ثورتها الكبرى، وهي التي بدلت الأرض غير الأرض، والقلوب غير القلوب، والعقول غير العقول، وقلبت نظام الاجتماع العام.

قد كان فعل القرآن في أنفس العرب، وإحداثه تلك الثورة الكبرى فيهم على نوعين: أولهما ما أحدثه من الزلزال في المشركين. وثانيهما تزكيته للمؤمنين ونزعه كل ما كان بأنفسهم من غل وجهل وظلم وفساد، حتى أعقب ما أعقب من الإصلاح في العالم كله، وأمهد لبيان ذلك بكلمة في حالهم في عصر ظهور الإسلام.

بَيَّنا مراراً أن الله تعالى قد أعد الأمة العربية ولا سيما قريش ومن حولها لما أراده من الإصلاح العام للبشر بكونهم كانوا أقرب الأمم إلى سلامة الفطرة، وأرقاهم لغة في التعبير والتأثير، وأقواهم استقلالاً في العقل والإرادة، لعدم وجود ملوك مستبدين فيهم يضعفون إرادتهم ويفسدون بأسهم، ويذلون أنفسهم بالقوة القاهرة، ولا رؤساء دين أُولي سلطان روحي، يسيطرون على عقولهم وقلوبهم ويتحكمون في عقائدهم وأفكارهم، ويسخرونهم لشهواتهم، وكانت جميع الأمم ذات الحضارة والملل، مستعبدة مستذلة لزعماء هاتين الرياستين، حاش العرب.

فلما بعث فيهم محمد ﷺ بهذا القرآن الداعي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، كانوا على أتم الإستعداد الفطري لقبول دعوته، ولكن رؤساء قريش كانوا على مقربة من ملوك شعوب العجم: في التمتع بالثروة الواسعة، والعظمة الكاذبة، والشهوات الفاتنة، والسرف في الترف، وعلى حظ مما كان عليه رؤساء الأديان فيها من المكانة الدينية بسدانتهم لبيت الله الحرام، الذي أودع الله تعظيمه في القلوب من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام – فرأوا أن هذا الدين الحر يوشك أن يسلبهم الانفراد بهذه العظمة الموروثة، وقد يُفَضِّل عليهم بعض الفقراء والموالي، وأنه يحكم عليهم وعلى من يفاخرون بهم من آبائهم بالكفر والجهل والظلم والفسوق ويشبههم بسائمة الأنعام – فوجهوا كل قواهم ونفوذهم إلى صد محمد عن دعوته ولو بتملكه عليهم، وجعله أغنى رجل فيهم، ولكن تعذر إقناعه بالرجوع عنها بالترغيب، حتى التمويل والتمليك، فقد أجاب عمه أبا طالب لَمَّا عرض عليه ما أرادوه من ذلك بتلك الكلمة العليا «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته».

حينئذ أجمعوا أمرهم على صده عن تبليغها بالقوة والحيلولة بينه وبين جماهير الناس في الأسواق والمجامع والبيت الحرام، وبصد الناس عنه أن يأتوه ويستمعوا له، وباضطهاد من اتبعه بالدعوة الفردية، إلا أن يكون له من يحميه منهم لقرابة أو جوار أو ذمة، فهؤلاء الرؤساء المترفون المسرفون المتكبرون، كانوا أعلم الناس بصدق محمد، وفيهم نزل قوله تعالى ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام]، فقد كابروا الحق بغياً واستكباراً للحرص على رياستهم وشهواتهم، وكانوا أجدر العرب بقبول دعوة القرآن لأنهم أدق الناس لها فهماً، وأوسعهم بإعجازها علماً، ولكنهم عتوا عنها عتواً ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ [النمل:14]، كفرعون وقارون وهامان في آيات موسى.

فعل القرآن في أنفس مشركي العرب

قلنا: إن فعل القرآن في أنفس العرب كان على نوعين: فعله في المشركين وفعله في المؤمنين، فالأول تأثير روعة بلاغته، ودهشة نَظْمه وأسلوبه، الجاذب لفهم دعوته والإيمان به، إذ لا يخفى حسنها على أحد فهمها، وكانوا يتفاوتون في هذا النوع تفاوتاً كبيراً، لاختلاف درجاتهم في بلاغة اللغة وفهم المعاني العالية.

فهذا التأثير هو الذي أنطق الوليد بن المغيرة المخزومي بكلمته العالية فيه لأبي جهل التي اعترف فيها بأنه الحق الذي يعلو ولا يُعلى، والذي يحطم ما تحته، وكانت كلمة فائضة من نور عقله وصميم وجدانه، وما استطاع أن يقول كلمة أخرى في الصد عنه بعد إلحاح أبي جهل عليه باقتراحها إلا بتكلف لمكابرة عقله ووجدانه، وبعد أن فكر وقدر، ونظر وعبس وبسر، وأدبر واستكبر، كما تقدم.

وهذا التأثير هو الذي كان يجذب رءوس أولئك الجاحدين المعاندين ليلاً لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ في بيته، على ما كان من نهيهم عنه ونأيهم عنه، وتواصيهم وتقاسمهم لا يسمعن له، ثم كانوا يتسللون فرادى مستخفين، ويتلاقون في الطريق متلاومين[1].

---

(1) هم أبو جهل وأبو سفيان والأخنس بن شريق كان كل واحد يأتي من ناحية فيستمع إلى قراءته ﷺ من حيث لا يراه الآخرون، فإذا تلاقوا بعد الانصراف تلاوموا وتواعدوا ألا يعودوا لئلا يعلم بهم غيرهم فيقتدوا بهم. وفي الثالثة تعاهدوا ألا يعودوا. فلما أصبحوا ذهب الأخنس فأتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها (يعني أنه لا ينكرها) فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. ثم ذهب الأخنس إلى أبي جهل في بيته فسأله عما سأل عنه أبا سفيان، فقال أبو جهل: ماذا سمعت؟

وهذا التأثير للقرآن هو الذي حملهم على منع أبي بكر الصديق رضي الله عنه من الصلاة والتلاوة في المسجد الحرام، لِما كان لتلاوته وبكائه في الصلاة من التأثير الجاذب إلى الإسلام، وعللوا ذلك بأنه يفتن عليهم نساءهم وأولادهم، فاتخذ مسجداً له بفناء داره، فطفق النساء والأولاد الناشئون ينسلون من كل حدب إلى بيته ليلاً لاستماع القرآن، فنهاه أشراف المشركين بأن العلة لا تزال، وأنهم يخشون أن يغلبهم نساؤهم وأولادهم على الإسلام، حتى ألجئوه إلى الهجرة فهاجر، فلقي في طريقه ابن الدغنة[1] سيد قومه، فسأله عن سبب هجرته فأخبره الخبر، وهو يعرف فضائل أبي بكر من قبل الإسلام، فأجاره وأعاده إلى مكة بجواره، أي حمايته، ومنعه منهم.

وخبره هذا رواه البخاري في باب الهجرة من صحيحه، وفيه ما نصه «فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة (أي إجارته) وقالوا لابن الدغنة: مُر أبا بكر، فليعبد ربه في داره، فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا[2]، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتقذف عليه[3] نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره،

تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا (يعني الحمل على الإبل والدواب) وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع إليه ولا نصدقه. رواه البيهقي في دلائل النبوة. وهذا إقرار من أبي جهل بأن الوحي غاية لا يملك إدراكها لأنه معجز للبشر.

(1) هو بضم الدال المهملة المشددة عند أهل اللغة وبكسرها عند رواة الحديث وكسر الغين المعجمة، وفي تخفيف النون وتشديدها روايتان.

(2) أي يحولهم عن دينهم إلى دينه بتأثير قراءته للقرآن وخشوعه وبكائه فيها.

(3) من التقذف، أي يتدافعون ويزدحمون فيقذف بعضهم بعضاً عليه، وفي رواية فينقذف بالنون، ويروى يتفصف وينقصف عليه.

فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن الصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك[1] ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إليَّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل» اهـ.

قلنا: إن هذا التأثير هو الذي حملهم على صد النبي ﷺ بالقوة عن تلاوة القرآن في البيت الحرام وفي أسواق الموسم ومجامعه، حتى إنهم كانوا يقذفونه بالحجارة، وهو سبب تواصيهم بما حكاه الله تعالى عنهم في قوله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فُصِّلَت].

وقد أدرك هذا أحد فلاسفة فرنسة[2] فذكر في كتاب له قول دعاة النصرانية: إن محمداً لم يأت بآية على نبوته كآيات موسى وعيسى، وقال في الرد عليهم: إن محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً أوَّاهاً متألهاً فتفعل قراءته في جذب الناس إلى الإيمان ما لم تفعله جميع آيات الأنبياء الأولين. (أقول) ولو كان القرآن ككتب القوانين المرتبة وكتب الفنون المبوبة، لما كان لقليله وكثيره من التأثير ما كان لسوره المنزلة.

ومن الشواهد الكبيرة على صحة قول الفيلسوف: ما روي أن كبراء قريش اجتمعوا فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه، فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة. فقالوا أنت يا أبا الوليد، فجاء النبي ﷺ فكلمه فيما

(1) أخفره: نقض عهده وأبطله.

(2) رأيت شيخنا الأستاذ الإمام محمداً عبده يطالع في كتاب قال لي إنه لأحد فلاسفة فرنسة وأسمعني منه ما ذكرت خلاصته هنا ولم أحفظ اسم الكتاب ولا اسم مؤلفه منه، وقال إن الكلمة التي وصف بها النبي ﷺ في حال القراءة تدل على أنه كان يكون متأثراً في نفسه ومؤثراً في غيره، وأنه لا يعرف كلمة عربية بمعنى هذه الكلمة الفرنسية.

قالوا عنه، وما يخافون من عاقبة أمره أن يُفضي إلى قيام بعضهم على بعض بالسيوف، وعرض عليه كل ما يمكن أن يريده من المال والرياسة والتزوج بعشر من خير نساء قريش. حتى إذا أتم كلامه تلا عليه النبي ﷺ سورة حم السجدة (أو فُصِّلَت 41)، حتى بلغ قوله تعالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فُصِّلَت] قام عتبة فأمسك على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه. فلما رجع إليهم وجدوه متغيراً فقالوا قد صبأ (أي مال) إلى محمد، وقص عليهم خبره، وما وقع من الرعب في قلبه من قراءته. ومما قاله: قد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب. وفي رواية أنه قال: كلمني بكلام والله ما سمعت أُذناي بمثله قط فما دريت ما أقول له. اهـ مختصراً من رواية المحدثين وهو مفصل في السيرة النبوية.

كان كل ما يطلبه النبي ﷺ من قومه أن يمكنوه من تبليغ دعوة ربه بتلاوة القرآن على الناس، إذ قال تعالى مخاطباً له ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:19]، أي وأنذر به كل من بلغه من غيركم من الناس، وقال في آخر سورة النمل ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل].

إن رؤساء قريش عرفوا من قوة جذب الناس إلى الإسلام بوقعه في أنفسهم هم ما لم يعرفه غيرهم، وعرفوا أنه ليس لجمهور العرب مثل ما لهم من أسباب الجحود والمكابرة فقال لهم عمه أبو لهب من أول الأمر: خذوا على يديه، قبل أن تجتمع العرب عليه، ففعلوا. وكان من ثباته ﷺ على بث الدعوة واحتمال الأذى ما أفضى بهم إلى الاضطهاد وأشد الإيذاء له ولمن يؤمن به، حتى ألجؤهم إلى الهجرة بعد الهجرة، ثم إجماع الرأي على قتله، لولا أن خرج من وطنه مهاجراً، ثم صاروا يقاتلونه في دار هجرته وما حولها، وينصره الله عليهم، إلى أن اضطروا إلى عقد

الصلح معه في الحديبية سنة ست من الهجرة. وكان أهم شروط الصلح السماح للمؤمنين بمخالطة المشركين، وهو الذي كان سبب سماعهم للقرآن، ودخولهم بتأثيره في دين الله أفواجاً، فكان انتشار الإسلام في أربع سنين بالسلم والأمان أضعاف انتشاره في ست عشرة سنة من أول الإسلام.

فعل القرآن في أنفس المؤمنين

كان كل من يدخل في الإسلام قبل الهجرة يلقن ما نزل من القرآن -ليعبد الله بتلاوته- ويُعَلَّم الصلاة، ولم يفرض في مكة من أركان الإسلام غيرها. فيرتل ما يحفظه في صلاته اقتداء بالنبي ﷺ إذ فرض الله عليه التهجد بالليل من أول الإسلام، قال تعالى في أول سورة المزمل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزَّمل]، ثم قال في آخرها ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزَّمل:20]، أي في صلاة الليل وغيرها، ثم ذكر الأعذار المانعة من قيام الليل كله، ما كان منها في ذلك العهد كالمرض والسفر، وما سيكون بعد سنين، وهو القتال في سبيل الله.

ومما ورد في صفة الصحابة رضي الله عنهم أن الذي كان يمر ببيوتهم ليلاً يسمع منها مثل دوي النحل من تلاوة القرآن، وقد غلا بعضهم فكان يقوم الليل كله حتى شكا منهم نساؤهم، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك. وكان هو يصلي في كل ليلة إحدى عشر ركعة يوتر بواحدة منهن، وما قبلها مثنى مثنى، وكان هو يطيل فيهن حتى تورمت قدماه من طول القيام، فأنزل الله عليه مُرفِّهاً ومسلياً ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه] الخ.

فتربية الصحابة التي غيرت كل ما كان بأنفسهم من مفاسد الجاهلية، وزكتها تلك التزكية التي أشرنا إليه آنفاً، وأحدثت أعظم ثورة روحية اجتماعية في التاريخ إنما كانت بكثرة تلاوة القرآن في الصلاة وتدبره في غير الصلاة، وربما كان أحدهم يقوم الليلة بآية واحدة يكررها متدبراً لها، وكانوا يقرءونه في كل حال حتى مستلقين

ومضطجعين كما وصفهم الله بقوله ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران:191]. وأعظم ذكر الله: تلاوة كتابه المشتمل على ذكر أسمائه الحسنى، وصفاته المقدسة، وأحكامه وحكمه، وسننه في خلقه، وأفعاله في تدبير ملكه كما تقدم.

وقد وصف الله تعالى فعل القرآن في هؤلاء المؤمنين بقوله ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[الزُّمَر:23] الآية.

ولو كان القرآن ككتب القوانين والفنون، لما كان لتلاوته كل ذلك التأثير في قلب الطباع، وتغيير الأوضاع، بل لكانت تلاوته تمل فتترك. فأسلوب القرآن الذي وصفناه آنفاً من أعظم أنواع إعجازه اللغوي، وتأثيره الروحي. ومن ارتاب في هذا فلينظر في المسائل التي تشتمل عليها السورة منه وليحاول كتابتها نفسها أو مثلها، بأسلوب تلك السورة ونظمها أو أسلوب سورة أخرى، كالسور التي يتكرر فيها الموضوع الواحد بالإجمال الموجز تارة، وبعض التفصيل تارة، وبالإطناب فيه أخرى، كالاعتبار بقصص الرسل مع أقوامهم في سور المفصل كالذاريات، والقمر، والحاقة، وفيما فوقها، كالمؤمنون، والشعراء، والنمل، وفيما هو أطول منها، كالأعراف وهود – ثم لينظر ما يفضى إليه عجزه من السخرية والتكرار المملول، الذي يغثَى منه الذوق غثياناً، وتمجه القلوب وتستفرغه استفراغاً.

وقد بين غوستاف لوبون في كتابه (روح الاجتماع) أن تكرار الدعوات الدينية والسياسية والاجتماعية في الخطب والمقالات التي تثير الجماعات وتدُعُّهم (تدفعهم بعنف) إلى الانهماك والتفاني فيها دعًّا، هو الذي يثبتها في القلوب، ولذلك يعتمد عليه خطباء السياسة رؤساء الأحزاب ومؤسسوها، وكذلك التجار وغيرهم فيما ينشرونه من الإعلانات في الصحف ويعلقونه في الشوارع.

ونقول: ما كان محمد ولا أحد من أهل عصره يعلمون هذا، ولكن الله يعلم من طباع الجماعات والأقوام، فوق ما يعلمه حكماء عصرنا وسائر الأعصار، وإنما

القرآن كلامه، وليس فيه من التكرار، إلا ماله أكبر الشأن في انقلاب الأفكار، وتغيير ما في الأنفس من العقائد والأخلاق. ولو جُمعت أبلغ خطب رجال السياسة التي أحدثت التأثير في أحزابهم، وقُرئت بعد ذلك مراراً قليلة، لسارع الملل إلى نفس كل قاريء، حتى أتباع ذلك الخطيب أنفسهم، وقراءة القرآن لا يملها أحد يفهم معانيها، ويذوق حلاوة أسلوبها.

ألا وإن تقليب القلوب والأفكار، لأعسر من فلق الصخور وتحويل الجبال، وقد ضرب الله لها المثل بقوله ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الحشر]، وهكذا كان تأثير القرآن في العرب، فهذا مثلهم. وأما مثل بني إسرائيل بعد رؤيتهم آيات الله لموسى فقوله لهم بعد سردها ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾[البقرة].

حسبنا ما بَيَّنا به تأثير القرآن وما أحدثه من الثورة العربية العالمية من ناحية أسلوبه ونظمه، وتكراره المعجز للبشر بشكله. ونقفي عليه بإصلاحه وإعجازه بموضوعه، وهو تعاليمه الدينية والسياسية والمدنية، وغيرها، فنقول: